شهادة عن المرئي
في حركة فتح الله كولن التركية

د. حسن أبو طالب[1]

هذه جملة من الأفكار والملاحظات غير المكتملة حول حركة فتح الله كولن التركية، من واقع عدة زيارات إلى تركيا في السنوات الخمس الماضية، كان آخرها في يونيه الماضي، فضلاً عن عدد من الاحتكاكات الفكرية والإنسانية مع بعض من أعضاء هذه الحركة سواء في القاهرة أو في إسطنبول وأنقرة.

وما يجب التأكيد عليه هو أن المرئي -بمعنى ما يمكن رؤيته وتلمس أبعاده بما في ذلك الاستماع المباشر من أصحاب القضية أنفسهم- هو بعض من كل، ومن ثم فلا يكون شاملاً، فهناك دائمًا بعض الذي لا يمكن رؤيته أو التعرف عليه. وحسبنا في هذه الملاحظات أنها جاءت بعد زيارات عديدة لتركيا. فطوال عشرين عامًا قدر لي أن أزور هذا البلد للمشاركة في مناسبات علمية مختلفة، أتاحت لي التعرف عن قرب للتطورات الجارية هناك، وبما يسمح لي التأكيد بأن تركيا شهدت تغيرات كبرى في السنوات الخمس الماضية على صعيد المجتمع والسياسة والرأي العام، وأن هذه التغيرات ارتبطت أساسًا بشعور يبدو غالبًا لدى الشعب التركي أنه استعاد هويته الطبيعية المرتبطة بالإسلام كدين وعقيدة وسلوك جمعي، فضلاً عن ارتباط بمجال حضاري أكبر بات ينظر لتركيا الدولة والناس بكثير من الود والاحترام ودفء المشاعر والانفتاح الطوعي.

وفي ظني أن جانبًا كبيرًا من هذه التغيرات يعود إلى الحركات والتنظيمات الصوفية والفكرية الإسلامية التي ظلت متمسكة بالعقيدة وبالتراث الديني الإسلامي على الرغم من كل الضغوط التي تعرضت لها طوال ثمانية عقود متتالية، مما شكل جذورًا قوية في الأرض التركية يصعب استئصالها.

---

[1] مدير معهد الأهرام الإقليمي للصحافة - المستشار بمركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية.

obeikandi.com

كانت وما زالت حركة فتح الله كولن واحدة من هذه الحركات المجتمعية التي ساهمت في إعادة إحياء الهوية الإسلامية للمجتمع التركي عبر العديد من الأنشطة والمؤسسات طوال خمسة عقود، والتي نشأت لمواكبة متطلبات المجتمع المسلم الساعي إلى التضامن والترابط والتمسك بدينه في مواجهة فكر علماني يكره الدين ويعمل كل ما في جهده من أجل القضاء عليه.

إذا عدنا إلى المرئيات ودلالاتها بالنسبة لحركة فتح الله كولن، يمكن الإشارة إلى عدد من الملاحظات على النحو التالي:

أولاً: أن ثمة تنظيمًا وفي الوقت نفسه لا تنظيم. من شروط التنظيم الانضباط ووضوح القيادة، ومن علامات اللا تنظيم انفراط العقد وترهل القيادة بل غيابها. في حركة فتح الله كولن لا يوجد تنظيم له ثوابت مؤسسية جامدة، بل هناك شبكة من المؤسسات لكل منها دور ووظيفة، ولكنها تتكامل مع باقي المؤسسات ذات الوظائف المختلفة. وحسب ما رأينا فهناك حركة اجتماعية تنظم نفسها في مؤسسات تقوم على مبادئ إيمانية، نظّر لها وصاغها فتح الله كولن نفسه واقتنع بها محبوه ومريدوه والذين أصبحوا دواليب النظام العام للحركة. إذن نحن أمام نظام متكامل عقدي وفكري وسلوكي يتداخل مع درجة عالية من الانضباط الذاتي للأفراد، مع وضوح الدرجات في التعامل بين العناصر المُشكلة للحركة والنظام معًا.

ثانيًا: في هذا النظام العقدي الفكري السلوكي، هناك نقطة ارتكاز محورية، تتمثل في الشيخ فتح الله كولن نفسه، فهو العالم والأستاذ وصاحب الأفكار والملهم والمحبوب والشيخ الجليل، الذي تصبو إليه نفوس محبيه، يعشقون كلماته ويحترمون تعاليمه، ويعملون على هديها في الانتشار وفي الحركة سواء داخل تركيا أو خارجها. والشيخ هنا ليس شخصًا عاديًا، بل هو معين متجدد من الأفكار والشروحات والإلهامات الإيمانية والتربوية. الفكرة هنا وإن كانت مهمة في حد ذاتها، فإنها تصبح أكثر حيوية وعطاء حين تتحول إلى مؤسسات، وحين تتحول إلى حركة فعل وتغيير منهجي سلمي للمجتمع والأفراد على السواء.

ثالثًا: في الجانب السلوكي لهذه الحركة يبرز مفهوم الخدمة التي تستهدف تغيير الأحوال للبيئة المعيشة، وهي الجامع بين القادر والمحتاج، بين صاحب المال وصاحب الحركة وصاحب الفكرة. وجوهرها يُعْنَى بتنظيم العطاء المتبادل بين الأفراد والمجتمع، وبهذا المعنى فإن الخدمة هي نظام التفاعل بين الفرد والجماعة والحركة، هي أساس التناغم بين الفرد كأحد أعضاء الجماعة وبين الهدف الأكبر وهو إصلاح حال الأمة الإسلامية على امتداد وجودها المكاني الجغرافي، كمقدمة لإصلاح حال الإنسانية. وكل من تعرفنا عليهم في "الخدمة" يشعرون بأنهم يؤدون رسالة إيمانية بالدرجة الأولى، واجتماعية مدنية بالدرجة الثانية، وأنهم جميعًا أصحاب قدر واحد، ومن هنا حالة التضامن الشديدة بينهم.

رابعًا: إن الخدمة هي النظام الذي تتقاسم فيه الأدوار وتتكامل، فهناك " التجار"، أو من هم مصدر المال، وهناك العُمال/ أعضاء الحركة بالمعنى الرحب، والذين يوظفون هذا المال الذي يكسبونه في الدنيا لتجسيد فكر الحركة / الجماعة في الإصلاح والتربية والتغيير. مع ملاحظة أننا شاهدنا انضباطًا وتقسيمًا للعمل وللأدوار وتراتبية تنظيمية لُحسن تسيير العمل.

خامسًا: يكمن الاهتمام الأول للحركة في تربية النفس والروح، وتقوية عزيمتها الإيمانية والرسالية. وما رأيناه من اهتمام بالتعليم، في المدارس والجامعات والنظم التربوية فهو يعكس أهمية بناء الانسان منذ الصغر، ومن خلال مجتمع مؤمن عقيدةً وملتزم سلوكًا. ولذا فالمعلم في داخل الخدمة له تأثير ودور كبير في صلاح الحركة ونجاحها. وفي السياق نفسه فإن الحركة من خلال مدارسها وجامعاتها تعمل على إعادة بناء المجتمع بطريقة سلمية وتدريجية وتراكمية. ولذا فلا توجد تفرقة في تقديم الخدمة، كل من يطلبها يجدها حتى ولو لم يكن من القريبين فكريًا وعقديًا من الحركة. وما فهمناه من بعض النماذج أن مدارس الحركة المنتشرة في ربوع تركيا وخارجها أيضًا تسهم كثيرًا في تغيير السلوك الاجتماعي للطلاب وأسرهم في آن واحد. وكأن المدرسة هنا أداة مباشرة لجذب مزيد من الأنصار والمتعاطفين.

سادسًا: ثمة اهتمام بالطلاب الفقراء من المناطق الريفية خارج المدن التركية الكبرى، من أجل مساعدتهم على إكمال تعليمهم، ومن ثم يكونون أعضاء فاعلين في نظام الخدمة. ومما سمعته أن ثمة خيارًا أمام هؤلاء الخريجين؛ إما العمل في سلك التعليم والتربية أو العمل في مجال التجارة التي تسهل الحركة لمن يريد أن يجد الدعم الذي يعينه على ممارسة ما يحلو له من تجارة، على أن يكون من الأصناف، أو الممولين للخدمة.

سابعًا: لاحظت اهتمامًا كبيرا ببناء المؤسسات، فالحركة لكي تستمر وتنمو لا بد أن تتحول إلى مؤسسات مدنية فاعلة نشطة وتقابل احتياجات الأفراد والمجتمع في منحى تكاملي يحقق إشباعًا عقديًا ودنيويًا في آن واحد.

ثامنًا: لكي تعيش المؤسسات وتتطور، فهناك حاجة للترغيب والتحفيز لجذب الأنصار وتقسيم العمل، ففي لقاءات الهمة يتم تبادل الخبرات والرأى في الأداء والتحفيز من أجل جمع المال للمشروعات المطلوب إنجازها، أو لاستمرار المشروعات وعمل المؤسسات التي تم بناؤها. في أحد لقاءات الهمة في إسطنبول كان الحاضرون من التجار والمعلمين والموظفين، وجميعهم يشعر أنه في حالة إيمانية وليست دنيوية، وكلمات الشيخ وتعليماته وتوجيهاته التي أذيعت على الحاضرين كانت تضفي جوًا روحانيًا إيمانيًا شفافًا ومتوهجًا في آن، وتشيع إحساسًا عامًا لدى الجميع بأن تبرعاتهم المالية أيًا كان حجمها أو جهدهم البدني هو في سبيل رسالة عظيمة وهدفها الأسمى خدمة الدين والعقيدة وابتغاء مرضاة الله، وأن حدود هذا الجهد هي الكون كله، وليس فقط تركيا، وأن ما يصرف في الدنيا هو رصيد للمرء في الآخرة، وأنه كلما كان هناك موضع بحاجة يمكن الوصول إليه، فأبناء الحركة مستعدون لتلبية النداء.

تاسعًا: شمول العمل المؤسسي جوانب عديدة تغطي كافة أوجه الحياة اليومية، وذات الصلة بمضمون وجوهر الفكر الذي يدعو إليه الشيخ فتح الله كولن، حيث الانفتاح على الآخر وخدمته والوصول إلى صاحب الحاجة أيًا كان مكانه أو موقعه. وتغطي هذه المؤسسات جوانب ثقافية مهمة، فهناك مؤسسات النشر والترجمة التي تعد جسورًا للمعرفة والذيوع لا سيما خارج تركيا، ومن هنا الاهتمام بالترجمة إلى لغات

العالم المختلفة. كما توجد القنوات الفضائية والمؤسسات الإعلامية التي تهدف إلى بلورة منتج إعلامي ملتزم عقديًا ومنفتح على المجتمع، بمعنى تقديم بديل إعلامي ثقافي يتوافق مع فكر فتح الله كولن، يتجسد أمام المشاهد من خلال برامج تليفزيونية ومسلسلات درامية وخدمة إخبارية.

ويمتد الاهتمام إلى مجال العمل الإنساني، كمؤسسة كميسه يوكمو، وترجمتها: "هل من أحد هناك؟" وتعمل في شئون الإغاثة في البلدان الإسلامية وفي المناطق التي تتضرر من تقلبات الطبيعة. وهناك مجال الرعاية الصحية، نموذج مستشفى سما، الذي يمتلك أفضل الأجهزة والأطباء ويقدم خدمته للقادرين مع نسبة لمن يحتاج الدعم والعون. ولاحظنا أن جانبًا من عمل مثل هذه المؤسسات يهدف إلى تحقيق ربح يسهم في تسيير أعمال ومؤسسات الحركة الأخرى.

عاشرًا: في مؤسسات حركة فتح الله كولن يبرز مفهوم الحوار كمنظومة عمل وحياة. وبما يعكس التعددية التي يحترمها الإسلام والتي هي سُنة من سُنن الطبيعة التي خلقها الخالق ﷻ من أجل النظر والتدبر والتأمل في عظمة الخالق. وهو ما تجسده "مؤسسة أبانت"، ووقف الصحفيين. مع ملاحظة أن تركيا اعتادت لفترة طويلة العلمانية الإقصائية للدين، فكأن طرح الحوار كمبدأ ومأسسته هو من نوع التعامل مع العلمانية وتحييدها وصولاً إلى استيعابها في مرحلة لاحقة يحدث فيها التمكن.

وخلاصة ما سبق، أن الحركة من خلال الاحتكاك مع بعض أنشطتها الظاهرة هي:

- التعامل مع المجتمع الإنساني الأرحب.
- تجسيد الإسلام كرسالة إيمانية لكل إنسان أيا كان مكانه وموقعه.
- الانفتاح على الآخر دينًا وجنسيةً وسلوكًا دون تعنت أو تكبر أو استعلاء.
- عملية تراكمية فكريًا وسلوكيًا وتنظيميًا لتجسيد نموذج الإنسان المتسامح، أو الإنسان المسلم الإنساني، الذي يجسد الإيمان بالله ورسوله ورسالته العظيمة لكل البشرية وحتى يوم الدين.